نحو إقامة منظومة قيم مشتركة للنظام العالمي الجديد

بقلم: أ / د . الهاشمي حمادو
أستاذ بكلية الحقوق ـ بن عكنون

المقدمة :

لعله من نافلة القول الحديث عن انهيار النظام الدولي الذي قام في أعقاب الحرب العالمية الثانية بجوانبه السياسية والقانونية والاقتصادية والعسكرية .

فالعالم اليوم لا يتنازعه مذهبان اقتصاديان متناقضان ـ الرأسمالية والاشتراكية ـ ، ولا العلاقات الدولية يحكمها قطبان أو محوران أحدهما غربي والآخر شرقي ، ولا التوازن العسكري تحدده أو تتجاذبه قوتان الأولى على رأسها الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه والثانية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها .

كما أننا نشهد اليوم نمو كيانات اقتصادية مستقلة عن الدولة ومستقلة كذلك عن مجموع الدول هي الشركات الصناعية والتجارية والخدماتية العملاقة العابرة للحدود الدولية ، وتسعى إلى أن يكون العالم كله سوقا لما تنتجه من سلع وخدمات .

وهناك تناقض قائم بين الدعوة الملحة إلى التوافق مع النظام الاقتصادي الدولي الموحد وبين الدعوة إلى التعددية ، إذ ما الذي يبقى من التعددية إذا كانت جميع الدول مدعوة إلى الدخول في الدين الجديد ـ الرأسمالية ـ وترك عقائدهم السياسية والاقتصادية والثقافية التي كانت لهم قبل ظهور الدين الجديد ؟ وأن جوهر الدعوة إلى العولمة بالمعنى الدعوي المحدد أن على الجميع أن يندمج في النظام الجديد ، بينما جوهر التعددية أن يبقى كل واحد على خصوصيته وهويته وتفرده وأن يتعاون الجميع بعد ذلك عن طريق نظام

جديد تقوم علاقاته على أساس الاعتماد المتبادل لا على أساس استعلاء فريق واستسلام فريق أو قيادة نظام واحد وتبعية سائر الناس له .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أهمية التعددية وضرورة المحافظة عليها فهي أكثر ديمقراطية وأدنى إلى حماية حقوق الأفراد والجماعات ، ذلك أنها تؤدي في النهاية إلى إقامة نظام تتعدد فيه بصفة مرئية مراكز اتخاذ القرار ، وهذا ما يشكل ضمانا لرشد الفكر والقرار من ناحية ، ولحماية الحرية من ناحية أخرى .

إن التحول نحو العالمية وإن بدأ اقتصاديا إلا أن امتداده إلى الميادين القانونية والسياسية والثقافية يثير سؤالا حاسما وكبيرا لا يمكن تجاهله أو القفز عليه ، وأقصد بذلك البحث عن الأساس الأخلاقي الذي يكون بنية أساسية لما يسمى بالنظام الدولي الجديد ؟

وقبل كل ذلك ما هي العولمة ؟ هل هي مذهب فكري جديد ، أم أنها ظاهرة سياسية عالمية أفرزتها المتغيرات الدولية ، والمناخ السياسي العالمي في أعقاب انتهاء الحرب الباردة بعد سقوط ما كان يعرف في الماضي بالكتلة الاشتراكية وتوحيد ألمانيا ؟ وهل راعت العولمة خصوصيات الشعوب أم أنها بنيت على سيادة مفاهيم وقيم وأنماط غربية لا غير ؟ وما هو دور الدين في رحلة البحث عن أساس أخلاقي للنظام العالمي الجديد ؟

1 ـ مدلول العولمة .

ظهر مصطلح العولمة الذي حل محل مصطلح النظام العالمي الجديد في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991 ، كمفهوم في أدبيات العلوم الاجتماعية الجارية كأداة تحليلية لوصف عمليات التغيير في مجالات مختلفة يتحاشى بعض فلاسفتها ومروجيها إدخال الدين ضمن تلك المجالات، فهم يحصرونها في مجالات السياسة والعلاقات الدولية، والاقتصاد، والثقافة والاتصال، وأنها تقوم على أربع عمليات أساسية هي :

1 ـ المنافسة بين القوى العظمى .

2 ـ الابتكار التكنولوجي .

3 ـ انتشار عولمة الإنتاج والتبادل .

4 ـ التحديث .

ومن ثم فإن صياغة تعريف دقيق للعولمة تبدو مسألة شاقة نظرا لتعدد تعريفاتها والتي تتأثر كثيرا بانحياز الباحثين ، وفقا لأيديولوجياتهم واتجاهاتهم إزاء العولمة رفضا أو قبولا [1].

وبالعودة إلى موسوعة Encyclopédia universalis وجدت فيها أن العولمة: Mondialisation هي إكساب الشيء طابع العالمية، وبخاصة جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالميا [2].

الظاهر أن هذا المعنى شديد الحيدة والبراءة ، لا ينسجم في عمقه مع دلالة اللفظ ومفهوم المصطلح، كما يراد له في عالم اليوم.

إن المفهوم السياسي والثقافي والاقتصادي للعولمة ، لا يتحدد بالقدر اللازم إلا إذا نظرنا إليه من خلال رؤية عامة، تدخل في نطاقها جميع المتغيرات السياسية والثقافية والاقتصادية التي يعيشها العالم منذ مطلع التسعينيات على وجه الخصوص [3].

وهناك سؤال محوري يفرض نفسه في هذا السياق وهو: هل تؤدي العولمة إلى سيادة جديدة لحضارة من شأنها التأثير على استقلال الدول وخاصة النامية منها ، والمساس

1ـ فاضل عبد الصبور ـ الخطاب الإسلامي في ظل العولمة ـ الوعي الإسلامي ـ إسلامية شهرية جامعة ـ تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت ـ العدد 188 ـ السنة 32 ـ ذو الحجة 1418 ـ أبريل 1998 ـ ص 2.

2- Encyclopédia universalis - tome 2 éditeurs -A -Paris - p 98.

3ـ انظر: «التويجري» عبد العزيز بن عثمان ـ الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي ـ الإسلام اليوم ـ مجلة دورية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ العدد 15 ـ 1419 ـ ص 13.

بحقها في اتخاذ قراراتها بكل حرية وفقا لما هو معروف ومقرر في القانون الدولي الوضعي؟

إن النزعة المركزية لصيقة بالنموذج الحضاري الغربي منذ العصر الروماني الذي رأى أصحابه أن الإنسان هو الروماني الحر وحده وما عداه واجب الاستئصال . ولقد طبقوا هذه النزعة الواحدة المركزية في عصر وثنيتهم بإبادة النصارى بعد تشريد اليهود ، وفي عهد نصرانيتهم باضطهاد المذاهب النصرانية المخالفة لمذهبهم الملكاني ، وامتد ذلك فيما عرف بالحروب الدينية بين مذاهب النصرانية - الكاثوليكية والبروتستانتية - التي امتدت منذ منتصف القرن السادس عشر وحتى العقود الأخيرة من القرن السابع عشر 1562 - 1688 - أي حتى عصر التنوير والتي أبيد فيها نحو عشرة ملايين .[4] ثم واصلت هذه النزعة المركزية الغربية صراعها مع الآخر طوال عصر استعمار الغرب للأمم والبلاد والحضارات غير الغربية ، وتم هذا الصراع والاستئصال على مختلف الأصعدة والميادين والجبهات .

على الجبهة الفكرية بإبادة البنى التحتية للمواريث الفكرية لحضارات الشعوب المستعمرة ، وعلى الجبهة القيمية باختراق منظومة القيم الخاصة بالشعوب المستعمرة ،[5] وعلى الجبهة الثقافية بتغريب المستعمرات وعلى الجبهة اللغوية بفرنسة أو أنجلزة ألسنة الشعوب المستعمرة ، وعلى الجبهة الدينية بتنصير العالم بالنصرانية الغربية ، وعلى الجبهة الاقتصادية بالنهب الاقتصادي الاستعماري الذي بنا رفاهية الغرب بالفائض الذي تحقق من إفقار الأمم والشعوب المستعمرة ، وعلى الجبهة الأمنية بتحويل

4 ـ هاشم صالح التنوير الأوربي رد فعل للاقتتال المذهبي - صحيفة الشرق الأوسط اللندنية - 2000/2/26 .

5 - الجبرتي - مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس - تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي - طبعة القاهرة - 1969 - ص 310 ، 311 .

العالم إلى هامش للأمن الأوربي والغربي [6] ، وتسخير الشعوب المستعمرة وإمكاناتها وقودا في الحروب الاستعمارية ، كما كان الرومان والفرس يصنعون قديما مع الغساسنة والمناذرة في النظام العالمي القديم . [7]

ذلك هو المفهوم الغربي لعالمية حضارته الأوربية ، مفهوم الواحدية الحضارية الذي يرى أن الحضارة الغربية هي وحدها العالمية والإنسانية ، بل هي وحدها الحضارة التي يجب أن تكون النموذج الوحيد للتحضر والتقدم ، والقالب الأوحد الذي يجب أن يصب فيه العالم جميعا . بل لقد رأى الغرب - ولا يزال - أن الصراع والصدام هو الخيار الرئيسي في تحقيق هذه الواحدية الحضارية، وذلك بسبب الصيغة الصراعية التي تماهت في بنية تكوين الحضارة الغربية ، والتي أفصحت عنها - ثم بررت لها - النظريات الرئيسية التي صبغت فلسفة الأنوار الوضعية الأوربية وفكر الحداثة الغربية وثقافتها . [8]

إن العالم اليوم يعرف شكلا من أشكال العولمة يتمثل في وجود قوى دولية - من غير الدول تشارك بصورة مباشرة في السياسة العالمية، عبر قنوات متعددة تصل المجتمعات بعضها ببعض، وفي شكل علاقات غير رسمية تقوم بين نخب غير حكومية ،

---

6 - وهنا يمكنني الإشارة إلى الاتحاد المتوسطي الذي يروج له الرئيس الفرنسي الحالي ، الذي لا يترك مناسبة إلا ويمجد بفضائل اتحاده المتوسطي ووصل به الأمر إلى اعتبار الاتحاد المتوسطي بمثابة حلم حضارات ومهمة الأجيال . وإذا كانت المنعطفات الكبرى في مسيرة البشرية بدأت بفكرة أو بحلم فإن الفرق كبيرا بين الرغبة وبين إمكانية تحقيقها والمسافة لا تزال بعيدة قبل أن يصبح الاتحاد المتوسطي حقيقة قائمة وواقعا ملموسا في موازين القوى الدولية ، فالعقبات كبيرة ومتنوعة ، والشكوك تحوم حول مضمونه وأغراضه الحقيقية ، ويبدو للكثيرين أنه أعرج منذ ولادته ذلك أنه يقوم على أساس علاقات غير متكافئة بين ما يعرف في أدبيات العلاقات الاقتصادية الدولية بالشمال والجنوب .

7 - محمد عمارة - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية - مجلة المسلم المعاصر - العدد 104 السنة السادسة والعشرون - أفريل ، ماي ، جوان 2002 - ص 08.

8 - المرجع نفسه - ص 8.

وبواسطة منظمات دولية ، وشركات عابرة للحدود الوطنية ، وبنوك تلعب دورا مهما في تلك العلاقات[9].

ويتكامل هذا الشكل من أشكال العولمة مع النظام الدولي الذي استقر في أعقاب الحرب العالمية الثانية بإنشاء منظم للأمم المتحدة والوكالات التابعة لها والعاملة في إطارها.

وهذان نمطان للعولمة لا يخلوان بحال من الأحوال من الهيمنة والسيطرة وفرض النفوذ الواسع (*). وقد عاش المجتمع الدولي في ظل هذين النظامين ما يزيد عن أربعين عاما دون انفراد إحدى الدول الكبرى بالقوة المتفردة ، إلى أن تغيرت الخريطة السياسية العالمية وظهرت القوة الأكبر - والمتمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية - التي انفردت بزعامة العالم ، واستتبعت انفرادها هذا بفرض نظام للعولمة يحقق لها مصالحها.

وإذا كان النظام الدولي الجديد الذي أخذ في التبلور والتشكيل في أعقاب انتهاء الحرب الباردة، قد انتهى إلى إيجاد صيغة للتعامل على المستوى العالمي تقضي بإخضاع العلاقات الدولية في مجالات التجارة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا إلى نظام ذي طابع عالمي ، أو إلى إكساب العلاقات الدولية الطابع العالمي وهو ما يصطلح عليه بالعولمة ، فإن المصالح المشتركة للشعوب والحكومات لن تتحقق في إطار هذا النظام بالجور وعدم العدل واللاتسامح والصراع ، أو بتجاوز هويات الأمم والشعوب ، أو بمحو خصوصياتها الحضارية ، حتى ولو كان وراء ذلك كله قوة باطشة وإرادة قاهرة.

2 - التلازم بين النظم والقيم

لا أظن أنني في حاجة إلى إثبات أن كل نظام اقتصادي وكل نظام قانوني وسياسي يسنده نظام أخلاقي ومنظومة قيم خاصة به تستمد منها الأحكام التقويمية .

9 - انظر: «عليوة السيد» - إدارة الصراعات الدولية - دراسات في سياسات التعاون الدولي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1988 - ص 40.

(*) انظر المادة 23 من ميثاق الأمم المتحدة بشأن الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن.

ففي الماضي البعيد حين كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاقتصادية الأساسية ، كانت بنيتها الأخلاقية ومنظومة السلوك فيها مستمدة من تقاليد وأعراف القبيلة المتوارثة جيلا بعد جيل .

وعندما قامت الدولة الحديثة واستقرت حدودها الجغرافية التي صارت - كذلك - حدودا سياسية لها ومحددا أساسيا لسوقها الاقتصادية ، كانت فكرة النظام العام والآداب المستمدة من القيم السائدة بين شعب كل دولة هي الأساس الأخلاقي للكيانات القطرية المختلفة . [10]

وهكذا ظلت القومية رابطة جامعة لكثير من الدول التي تنتمي شعوبها لثقافة واحدة ، غير أن حدود النظام الأخلاقي ظلت - في الغالب الأعم - هي حدود الدولة أو حدود الدولة متداخلة مع حدود الأمة الواحدة التي يربطها رباط ثقافي قومي .

وعليه ، ما هو الأساس الأخلاقي لنظام الدولي الجديد الذي قيل أنه يسعى نحو الوحدة نتيجة توحد السوق وارتفاع الحواجز وتلاقي الثقافات ؟

3 - حاجة النظام الدولي الجديد إلى منظومة قيم

إن النظام الاقتصادي الجديد الذي كان أول ما توحد في هذا العصر لا يزال مفتقرا إلى نظام أخلاقي يقوم عليه . كما أن النظام السياسي والقانوني الذي بدأ يتشكل الآن لا يعرف هو الآخر أساسا أخلاقيا معلوما .

فإذا علمنا أن النظام الاقتصادي الدولي الجديد هو - في أساسه - نظام رأسمالي تتحكم فيه الثروات المتراكمة ، وتوجهه المؤسسات الخاصة التي تحوز تلك الثروات . وإذا كانت المنافسة الحرة قد تحولت إلى صراع وحشي تمليه المصالح الأنانية التي لا تعرف حدودا. وإذا كان الضعفاء - وهم الأغلبية - يمكن أن يقعوا فريسة وضحايا في هذا الصراع .

---

10 - أحمد كمال أبو المجد - العولمة والهوية ودور الأديان - مجلة المسلم المعاصر العدد 91 - السنة الثالثة والعشرون - فبراير ، مارس ، أفريل 1999 - ص 16

وإذا علمنا أن الأمم المتحدة وميثاقها قد تداعت أركانها واهتزت أسسها ، وأصبحت مجرد غطاء بدون هيكل حقيقي ، وأن جوهر السلطة الحقيقية يستقر في يد قلة من الدول لا تقبل منافسا أو شريكا.

وإذا كان الكثيرون قد راحوا يتحدثون عن زمن العولمة والتكيف معها في مؤتمرات للحوار ، فإنهم قد غفلوا أن العولمة ضد الحوار والتلاقي . فالعولمة قد انطلقت من مرجعية النموذج الواحد الأمريكي ، ولم تكن مشروعا أو ورقة عمل خرجت بها مجموعة تحاورت فتوافقت على نقاط ومنطلقات . إن مكمن الخطر في عملية العولمة كونها تستمد مرجعيتها من تصورات وممارسات أورو أمريكية ، أو بالأحرى أمريكية مما يعني أنها ليست نتاجا لتفاعلات بين الحضارات والمذاهب المختلفة على مستوى العالم ككل ، وهو الأمر الذي يكشف بشكل أو بآخر ، وعلى حد قول البعض أن العولمة هي الهجمة الأخيرة الرأسمالية والتي تستهدف تنميط العالم بالشكل الذي يخدم مصالح القوى الرأسمالية العالمية المسيطرة .[11]

ومع السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين نجد سياسة الاستعلاء القائمة على عقدة التفوق قد أوصلت الأمريكي إلى السعي لاستباحة سيادات الدول وحقوق الشعوب دونما رادع أو ضابط.

لقد أعربت هذه الثقافة عن نفسها بعملية الإبادة التي مارسها المهاجرون ضد سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر ، تصل بعض التقديرات إلى أنها قتلت ما يزيد عن 80 مليون شخص ، ومن ثم حرب استرقاق الأفارقة ، ولذلك تأصلت فيهم عقدة التفوق على أساس لون البشرة . يقول الأمريكي «روبرت كروندن» في هذا الموضوع : ... بحلول عام 1682 أصبح الهنود الحمر والعبيد يخضعون لقوانين واحدة ربطت لون البشرة بدرجة

11 ـ نصر الدين إبراهيم ـ العولمة وانعكاساتها على دول العالم الثالث ـ في العولمة ـ ندوة ـ ليبيا ـ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ 1998 ـ ص 44 .

الحرية . وبعد ذلك التاريخ أصبحت البشرة الداكنة تعني أن صاحبها إما عبد أو أصله من العبيد . أما البشرة البيضاء فتعني أن الأصل أفضل ، وأن صاحبها يملك الحرية لتحسين وضعه الاجتماعي)) . [12]

إن مساعي الهيمنة الأمريكية على اقتصاد العالم من خلال نظرية اقتصاد السوق والشركات العابرة للحدود القومية مضافا إلى ذلك الإمساك بقرار المؤسسات الدولية آنفة الذكر إنما هي مخططات لاختراق سيادات الدول، ونهب ثروات الشعوب ، ولهذه الغاية نجدهم يرفعون سلاح الحصار ضد كافة من يتمرد على القرار الأمريكي ، فلقد حاصروا الجماهيرية وبعدها العراق . وفي مرحلة التهديد بالعدوان على العراق حيث وقفت دول عديدة تواجه العدوان الأمريكي - خدمة لمصالحها وليس على أساس قيم - ومن هذه الدول فرنسا وألمانيا نجد وسائل الإعلام صبيحة الخميس 2003/02/13 تطالعنا بنبأ ينص أن الولايات المتحدة الأمريكية تدرس مسألة إنزال عقوبات اقتصادية ضد فرنسا وألمانيا ، وتدرس عملية استبدال الهند بفرنسا في عضوية الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن .

إذا عرفنا كل ذلك فإن الحاجة تبدو ماسة وملحة إلى توافق الشركاء الجدد في النظام الدولي الجديد على أساس أخلاقي وقيمي مشترك . ولا يكون هذا الأساس مشتركا إلا إذا استمد مضمونه من الثقافات المتعددة التي ينتمي إليها جميع الشركاء، ناهيك عن تمثيله للحد الأدنى الذي نستطيع أن نتجاوز به مواضيع الخلاف والخصوصية وأن نلتقي في ظله على الأمور المشتركة .

---

12 - كروندن روبرت - موجز تاريخ الثقافة الأمريكية - ترجمة مازن حداد - مراجعة أحمد يعقوب المجدوبة - عمان - الأهلية للنشر - 1995 - ص 77.

4 ـ دور الأديان في البحث عن قيم مشتركة

إنه وفي صدد البحث عن قيم مشتركة لا يجوز أن نغفل عن الدور الأساسي الذي تلعبه الأديان في تقديم هذا الحل ، فقد كانت الأديان منذ فجر التاريخ وإلى اليوم ذلك الينبوع الذي استمدت منه الشعوب بناءها الأخلاقي .

وإذا كانت مرحلة الحداثة التي أعقبت الثورة الصناعية قد فجرت عبادتين جديدتين هما، المال وعبادة المال فإن آثارهما السلبية قد ردت الناس من جديد إلى أديانها تلتمس منها علاجا لما تشكو منه ، وتستلهم قيمها ومبادئها الكبرى في إيجاد أساس أخلاقي تتحسن عن طريقه نوعية العلاقات الإنسانية بعد أن اكتشف الإنسان الفرد أن سعادته الحقيقية لا تتحقق بحيازته الأشياء وتراكم الأموال وإنما تتحقق من خلال علاقات حميمة وودية ودافئة مع غيره من بني جنسه .

وإذا كانت العالمية قبل الإسلام قد فرضت على أيدي اليونان والرومان في إطار مبادئ وقيم قهر الإنسان للإنسان ـ ويراد لها اليوم أن تكون كذلك ـ المتوارثة الشائعة لدى أمم الأرض ، فإنه وبانتشار الإسلام بنيت عالميته على دعائم تعاليم المسلمين الأولى ، وبنت أوروبا عالميتها على الأنوار والنهضة والعقلانية .

والعالم اليوم يرتقب إلى العالمية التي لن تتحقق إلا في ظل القيم المشتركة التي أرسى الإسلام دعائمها من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

خرج المسلمون بتشريعهم إلى حوض الحضارات القديمة ، ولم يكن خروجهم ذاتيا من عند أنفسهم، لكن الله تعالى أخرجهم في إطار دفع إلهي لا في إطار استعلاء قومي ذاتي وعلاقتهم بالقرآن والرسالة التي أشتمل عليها علاقة تكليف وتبيين وإيمان لا علاقة إنشاء وتوليد من ذواتهم ، وقد خرج حملة الرسالة الأولون ليحققوا مهمتين: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» [13]. فهو دعوة

13 ـ سورة آل عمران ـ الآية 110.

لتحقيق غايات إنسانية مشتركة بين البشر جميعا تتلخص بإخراج الناس من الجور إلى العدل ، وكل هذه أمور يعود نفعها على الناس الذين يوجه إليهم الخطاب جميعا.

وبذلك الخطاب المجرد عن أية مكاسب وطنية أو ذاتية ، المتجه لصالح الآخرين تحققت قابلية استيعاب الآخرين وحضارتهم وأنساقهم الثقافية وتحويلهم إلى شركاء متساوين في تبني الرسالة، وحمل أعباء توصيلها للآخرين في حركة فتح ودعوة واسعة جرت في إطار نظام وطبيعة روابط العالم آنذاك [14].

إذا كان أقصى ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة هو إقرار التعدد، فإن عالمية الخطاب الإسلامي عملت وتعمل على استيعاب التعدد بعد الإقرار به ، ودفعه باتجاه العالمية ليتحول إلى عامل في إطار تنوع بشري إيجابي ـ تظلل عليه أنوار الهدى ودين الحق ـ التي لا تسمح ببروز أية أسباب وعوامل للانقسام الديني الطائفي ، فالإسلام قد جعل من نفسه محور جذب لا محور تنابذ وطرد كالمركزية الغربية المعاصرة.

إن الآيات الثلاثة التي ورد فيها الوعد الإلهي[*] بظهور الهدي ودين الحق على الدين كله، تذكر بأهم الخصائص المساعدة على الظهور وهي : تحري الهدى ، والسعي وراء الحق ، فالدين مضاف إلى الحق والحق مضاف إليه . ولم تستخدم كلمة الإسلام في هذه الآيات لئلا يتوهم البعض أن المراد به إطاره البشري القائم الذي يشمله في إطار امتداده الأول وعمقه الجغرافي الذي وصل إليه خلال الفتح، وعمليات الانتشار الأولى فيؤدي إلى لبس أو توهم بأن عالمية الإسلام المنتظرة ستتخذ الأبعاد والوسائل ذاتها، كما هو الحال في

14 ـ «مصطفى» نادية محمود ـ العلاقات الدولية في الإسلام ـ المعهد العالمي لفكر الإسلامي ـ القاهرة 1996 ـ ص 18 ـ 19.

(*) والآيات الثلاثة هي:

ـ سورة التوبة ـ الآية 33.

ـ سورة الفتح ـ الآية 28.

ـ سورة الصف ـ الآية 09.

نبوءات أنبياء أهل الكتاب الذين يتوهمون حدوثها، لخوارق تقع بشكل غيبيّ وبدون أسباب أو بذات الأسباب التي وجدت في عصور أولئك الأنبياء والرسل، والأمر ليس كذلك فإن الصيرورة التاريخية محكومة بسنن الله والقوانين التي حكم الله تعالى إيجادها[15].

ولما كان الدين الإسلامي يقوم على الفضيلة ومشتقا من الفطرة الإنسانية ، سواء أكان في نظم المعاملات أو نظم الأخلاق فهو عام لا يخص إقليما دون إقليم وليس للمسلمين وحدهم ولكنه للناس أجمعين، لأن الأساس الخلقي الفاضل الذي يقوم عليه يعم العالم كله، فهو يحقق الوحدة التشريعية، كما هو جامع لمعاني الفضيلة[16]. ولا يقصد بالوحدة التشريعية التي يدعو إليها الدين الإسلامي الوحدة التي تجمع الكليات والجزئيات، بل يقصد بها الوحدة التي تشمل الكليات التي لا تختلف فيها عقول الناس، ولا يختلف فيها معنى العدل، كالحدود والقصاص، والوفاء بالعهد، ورد العدوان، والتعاون والتواصل الحضاري، وهذه الأصول ثابتة في كل الأرض. وكذلك المساواة والكرامة الإنسانية، والحرية المضبوطة بأحكام الشرع والمصلحة الإنسانية المانعة من الانطلاق والفوضى الفكرية.

وهكذا، فكل هذه قواعد وكليات يجب تطبيقها في كل الأرض حيث يسكن الإنسان، ولكن التطبيق يختلف، فقد يكون الإجرام في مكان بطريقة يختلف عن الإجرام في إقليم آخر. ويختلف الجزاء غير المنصوص عليه فتختلف جزئيات العقاب من غير مخالفة للنص الأصلي أو الكلي، ولا يصح أن يكون أمر من الأمور موصوفا بالإجرام في إقليم ولا يتحقق فيه ذلك الوصف في إقليم آخر. وقد تختلف طريقة الردع ما دام لا يوجد نص على طريقة معينة، كما لا يصح أن يعتبر فعل من الأفعال جريمة في إفريقيا، ولا يعتبر جريمة في

15 ـ انظر: «مصطفى» نادية محمود ـ المرجع السابق ـ ص20.

16 انظر: «شلبي» محمد مصطفى ـ الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية ـ الدار الجامعية للطباعة والنشر ـ بيروت 1982ـ ص 126 وما بعدها.

أمريكا، فمدلول المعنى الإجرامي واحد. والفضائل والرذائل لا باختلاف الأقاليم، ولا باختلاف الألوان لأن قانون الخير والشر واحد في هذه الأرض. والدين الإسلامي يقوم على أساس من المقياس الخلقي الذي يعم حكمه بالخير والشر على الأفعال وعلى الأشخاص [17].

لكن هذه العالمية الإسلامية لا تعني انفراد الحضارة الإسلامية بالعالم وإلغائها للآخر الحضاري ، بل إنها تعني التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر في ظل التأكيد على أن التعددية الحضارية والتنوع الثقافي والاختلاف في الشعوب والأمم والقبائل، وفي الألوان والأجناس والأعراق ، وفي الألسنة والقوميات ، وفي الشرائع والملل الدينية ، وفي المناهج والمذاهب والثقافات والحضارات . إن كل هذا التنوع والاختلاف هو القاعدة الطبيعية والقانون التكويني والسنة الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل : «**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** » ، [18] «**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** » ، [19] « **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** » [20]، « **..... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**» [21] ، فالناس سعيهم شتى « **إن سعيكم لشتى** » [22] ، «**ولكل وجهة**

17 - «أبو زهرة» محمد - المجتمع الإنساني في ظل الإسلامي - دار الفكر العربي - ص 48 - 49.

18 - سورة الحجرات الآية رقم 13 .

19 - سورة الروم - الآية رقم 22 .

20 - سورة هود - الآية رقم 118 ، 119 .

21 - سورة المادة - الآية رقم 48 .

22 - سورة الليل - الآية رقم 4

هو موليها فاستبقوا الخيرات .... » [23] . والتدافع والحراك والتسابق هو سبيل رأب الصدع وتعديل الخلل وإعادة الميزان - الوسط ، العدل - إلى العلاقات بين الطبقات أو الأمم أو الحضارات. « **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** » [24] ، وليس الصراع الذي يصرع فيه وبه طرف الأطراف الأخرى فينفرد هذا الطرف بالساحة والثمرات والامتيازات منهيا التعدد والتنوع والاختلاف .

لكن المسجل أن هذه الأديان لن تستطيع اليوم أن تقوم بمهمتها إلا إذا توفر لها أمران :

1 - ترشيد حركة المتدينين ، و تصحيح فهمهم وإصلاح سلوكهم في إطار المقاصد الكبرى للدين بغية مواجهة التيارات اللادينية .

إن ممثلي الأديان السماوية مدعوون إلى التأمل في هذه الصورة بكل قسماتها وتفاصيلها ليرسموا أولويات عملهم من جديد وليبدؤوا رحلة حوار طويل يظللهم فيها قول الحق عز وجل : «**قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** » [25]. وهو حوار لا بد أن تحكمه آداب الحوار الإنساني الرفيع ، وهي آداب شدد عليها القرآن العظيم بقوله عز وجل « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** » [26] ، وقوله تعالى : «**وقولوا للناس حسنا** » [27] .

2 - إعادة النظر في الخطاب الديني السائد بين دعاة كل دين أو المتدينين باسمه .

فأما يهود العالم فهناك مسافة كبيرة صارت تفصلهم عن مسيحييه ومسلميه ، وعن حاجز نفسي يعبر عن نفسه في فترات الصفاء والهدوء بشيء من الفتور الممزوج

23- سورة البقرة - الآية رقم 148 .

24 - سورة فصلت - الآية رقم 34 .

25 - سورة آل عمران - الآية رقم 64.

26- سورة النحل - الآية رقم 125 .

27 - سورة البقرة - الآية رقم 83.

بالتوحش . كما يعبر عن نفسه في فترات أخرى سيئة بألوان من العداوة والبغضاء التي صار البعض يسميها خطأ معاداة السامية .

فاليهود وعلى الرغم من كل الأبواب التي فتحت أمامهم إلا أنهم ظلوا يشعرون أنهم لا ينتمون إلى القوميات الوطنية التي كانت سائدة في أوربا حقا ، وأن عليهم أن تكون لهم قوميتهم الخاصة ، وأن العالم كله يعاني ما يعاني من الفوضى لأن الشعب اليهودي لا يشغل المكان الذي منحته إياه البنية الغائية للكون . وهذا شاهد على ما في اليهودية من عنصرية تجعلها عاجزة عن التعايش مع سواها ، بل تجعلها تبحث عن السيطرة على سواها وعلى العالم .

وحسبي هنا أن أشير إلى أفكار زعيمين صهيونيين شهيرين هما « جابو تنسكي » وثانيهم « أوري تزيفي غرينبرغ». أما الأول فهو يميني متطرف وأكبر الدعاة إلى اللجوء إلى القوة من أجل توليد الكيان الصهيوني ، فقد وضع نظرية متكاملة حول دور العرق في تاريخ الإنسانية . وأول تحليل صدر له في مقال كتبه عام 1913 عنوانه «حول العرق » وفيه يقول : «إنه ليس من المهم أن يوجد عرق صاف أو لا يوجد فالأهم هو الفرق القائم بين مختلف الجماعات الإثنية التي يميزها نسبها العرقي ، وبهذا المعنى وحده يغدو مفهوم القومية ومفهوم العرق متكاملين» .[28] فجوهر القومية ومقوم وحدتها يكمنان في الصفات الجسدية المميزة لها ، وفي العناصر المقومة لتكوينها . وهذا يؤدي به إلى القول بتفوق القومية الصهيونية على سواها من الأمم.

أما الثاني فيتهم المسيحيين بمعاداة السامية ، ويتهم العرب والمسلمين بتعطشهم إلى الحقد..... أما جوهر الانتساب إلى اليهود عنده فتحدده صفتان : الأولى هي الدم والأرض والوحدة البيولوجية الكاملة ، أما الصفة الثانية لدى الشعب اليهودي فتقيم بينه وبين

28 ـ نقلا عن ـ عبد الله عبد الدائم ـ المشروع القومي العربي في مواجهة الصهيونية ـ الآداب العربية ـ مجلة ثقافية ـ العدد الثالث ـ السنة 50 أفريل 2002 ـ ص 17 ، 18 .

الشعوب غير اليهودية اختلافا وفارقا مطلقا . ومن هنا فالحوار مع غير اليهود هو قعقعة السلاح ، وعن طريق الدم سوف يكون البعث . واليهود سوف يحققون وجودهم في أرض إسرائيل باللجوء إلى حرب لا تبقي ولا تذر ضد أولئك الذين يقفون في وجه تحقيق مشروعهم .

ويبكي « أوري تزيفي غرينبرغ» بكاء مرا على ما أصاب القدس مدينة «داوود عليه السلام » التي هجرها الأنبياء والتي ملأها المسلمون والعرب بنهيق الحمير ودنسوها بروث الأغنام والبشر . ويدعو في خاتمة المطاف إلى تحرير إسرائيل بحد السلاح، وإلى بناء ملكوت إسرائيل بالقوة ، وإلى إقامة دكتاتورية إيديولوجية مهمتها تحقيق الرؤية المسيحية لملكوت إسرائيل .

وإذا عدت إلى أفكار «جابو تنسكي» فإنني أجد من أقواله في معاداة الإنسان والإنسانية قوله: لا تأمنن لأحد وكن دوما فطنا حذرا ، وسيء الظن واحمل دوما عصاك معك ، وبذلك فقط تستطيع أن تعيش في قلب هذه الحرب التي لا هوادة فيها ، حرب الإنسان للإنسان أنى كان . [29]

و سلوكهم اليومي سواء في تعاملهم مع بقية الأمم أو في فلسطين المحتلة هو خير ترجمان لهذه النصوص والأقوال لمختلف مفكريهم وزعمائهم .

إن الذي ساهم في خلق هذه المسافة أن قيادات وزعامات يهودية قد بنت علاقة اليهود بغيرهم على أساس محوري هو الإحساس بعدم الأمن نتيجة انعزال اختياري في مراكز خاصة ، ونتيجة تشرذم وتفرق في البلاد ، وأخيرا نتيجة ما وقع لهم في التاريخ الحديث من التعرض للمأساة المعروفة باسم المحرقة اليهودية« Holocauste» على يد النازية .

وأما المسيحية فأزمتها تعود إلى تراجع تأثيرها لمصلحة المكون العقلي المادي المستمد من الحضارة اليونانية القديمة، والذي تطور ونما في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

29 ـ عبد الله عبد الدائم ـ المرجع السابق ـ ص 18 .

إن الصراع التاريخي خلال القرون الوسطى بين الكنيسة والدولة الملكية قد انتهى إلى مصالحة تاريخية صيغة في شكل مبدأ سياسي ودستوري هو مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة . ويعبر الأمريكيون عن هذا المبدأ بأنه تقرر إقامة جدار مرتفع يفصل بين الكنيسة والدولة .

إن العولمة الأمريكية تعولم وتعمم وتفرض ثقافة الحداثة الغربية التي أقامت وتقيم قطيعة معرفية مع الموروث ، ومع الموروث الديني على وجه الخصوص . فمنذ عصر التنوير الغربي ـ الوضعي والعلماني والمادي ـ أقامت ثقافة قطيعة مع الله والغيب والدين عندما تمحورت حول الإنسان بدلا من الله ، وعندما جعلت هذا الإنسان طبيعيا بدلا من أن يكون ربانيا نفخ الله فيه من روحه واتخذه خليفة عنه لنهوض برسالة العمران .[30] ويبلغ حد القطيعة مع الله والدين إلى درجة الاستفزاز لأي لون من ألوان الإيمان بأي دين من الأديان عندما يعرف أحد الحداثيين هذه الحداثة بقوله : إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته ..... وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان امبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون .[31]

أما فوكوياما فرانسيس فيقول : « ولكن الدين في حد ذاته لا يخلق مجتمعات حرة ، فالمسيحية بمعنى معين كان عليها أن تمحو وجودها من خلال علمنة أهدافها قبل أن تظهر الحرية . والمثل العام المقبول لهذه العلمنة في الغرب كان المذهب» البروتستانتي» فعن طريق جعل الدين شيئا خاصا بين المسيحي وربه استبعدت « البروتستانتية» الحاجة على طبقة منفصلة من الكهنة ، وبصفة أكثر عمومية تحويل الدين إلى سياسة» .[32]

---

30 ـ محمد عمارة ـ المرجع السابق ـ ص 25 .

31ـ نقلا عن / علي حرب ـ مسيرة التقدم والحضارة بين أنصاف زينون وأشبار أركون ـ صحيفة الحياة اللندنية ـ يوم 1996/11/18

32 ـ فوكوياما فرنسيس ـ نهاية التاريخ ـ ترجمة حسين الشيخ ـ دار العلوم العربية ـ بيروت ـ 1993 ـ ص 245 .

ويدعو «فوكوياما فرنسيس» إلى إزاحة الإسلام والمسيحية لأنهما - حسب زعمه - لا يمكن أن يتعايشا مع العولمة ونظامها الليبرالي ورأسماليتها المتوحشة فيقول : «فالإسلام بصفة خاصة لا يقل عن المسيحية في إقامته لمبدأ المساواة الإنسانية العالمية، ولكنهما من الصعب أن يتكيفا مع المذهب الليبرالي والاعتراف بالحقوق العالمية ، وخاصة حرية التفكير والديانة ».[33]

غير أن هذا الجدار الذي أريد له - تاريخيا - أن يحدد اختصاص مؤسستين من مؤسسات المجتمع الغربي المسيحي قد تحول إلى إقصاء لكل ما هو ديني عن مسيرة التطور الإنساني ، خصوصا في ميادين السياسة والاقتصاد والقانون .

وهكذا تقف الحضارة الغربية على أبواب طلاق نهائي بين العنصرين المكونين تاريخيا لمضمون هذه الحضارة ، المكون المسيحي والمكون العقلاني المادي المستمد من أصول يونانية .

ولعله من الواجب اليوم إعادة النظر في هذه الصيغة دون التنازل عن بقاء الحريات السياسية بعيدة عن تدخل رجال الكنيسة .

وبغير إعادة النظر هذه سينطلق التطور السياسي والقانوني والاجتماعي في الغرب محروما من قيم الرحمة والسماحة والحب والسلام ، وستحاصر المسيحية في كنائسها ولن يقبل عليها إلا الهاربون من الحياة والعاجزون عن التعامل مع نواميس التطور ومتطلباته . وسيجد الناس أساسا أخلاقيا لنظامهم الدولي الجديد بعيدا عن المسيحية وتعاليمها الإنسانية السمحة .[34]

أما عند المسلمين فإن الأمر يحتاج إلى تصحيح من خلال جملة من المحاور :

1 - رسم خط واضح بين الإسلام كما تفهمه الأغلبية مكونة التيار العريض للإسلام وحضارته ونظامه ، وبين تيار الغلو في الدين مهما كان شكله بدء من العزلة عن تيار الحياة

33 - فوكوياما فرنسيس - المرجع السابق - ص 245 .

34- أحمد كمال أبو المجد - المرجع السابق - ص 19 ، 20 .

والفرار إلى التعبد بظواهر النصوص وانتهاء إلى ممارسة صور القسر والعنف وإكراه الناس .

2 ـ تصحيح فهم عالمية الإسلام باعتباره دعوة إنسانية موجهة للكافة وليس نظاما يسعى أتباعه إلى فرضه عنوة وقسرا على سائر الناس .

3 ـ إعادة قيم الحرية والشورى إلى مكانهما الصحيح من التصور الإسلامي ومن الحياة اليومية والسياسية والاجتماعية للمسلمين بعدما ساد القمع . [35]

4 ـ إعادة النظر في علاقة المسلمين بالآخرين ، فالمسلمون لم يكونوا ولم يرد لهم المولى عز وجل أن يكونوا أمة منعزلة منكفئة على نفسها مرتابة في غيرها ، والتعددية سنة من سنن الله في خلقه.

5 ـ الواقع والحلول

إذا كان النظام الدولي الذي أخذ في التبلور والتشكيل في أعقاب انتهاء الحرب الباردة، قد انتهى إلى إيجاد صيغة للتعامل على المستوى العالمي تقضي بإخضاع العلاقات الدولية في مجالات التجارة، والاقتصاد، والعلوم والتكنولوجيا إلى نظام ذي طابع عالمي أو إلى إكساب العلاقات الدولية الطابع العالمي، وهو ما يصطلح عليه بالعولمة، فإن المصالح المشتركة للشعوب والحكومات لن تتحقق في إطار هذا النظام بالجور وعدم العدل واللاتسامح والصراع، أو بتجاوز هويات الأمم والشعوب، أو بمحو خصوصياتها الحضارية، حتى ولو كان وراء ذلك كله قوة باطشة وإرادة قاهرة.

وعليه ، هل تشكل العولمة أو الكونية نقيضا للقيم والأخلاق والخصوصيات الخاصة بكل أمة من الأمم ؟

35 ـ أحمد كما ل أبو المجد ـ المرجع السابق ـ ص 21 وما بعدها .

إن التسامح والحوار مع الآخر كند أمر لا غنى عنه للعلاقات السلمية في أي مجتمع، وعندما يتحول التسامح إلى احترام متبادل، وهي صفة أكثر إيجابية فإن نوعية العلاقات ترقى بشكل واضح. ومن ثم فإن الاحترام المتبادل يعتبر أساسا لإقامة مجتمع إنساني تعددي، وهو نوع المجتمعات الذي يمثله الْجِوَارُ العالمي ذاته لا يتميز بالاستقرار فقط بل باحترام تنوعه الذي يغنيه[36].

وإذا تجاوزت فكرة العولمة أو الكونية هذا العنصر الإنساني، وعدمت الأساس الأخلاقي والقيم والمثل، كانت إلى النظام الشمولي أقرب منها إلى النظام القانوني القابل للتطبيق لصالح الإنسانية كافة.

إن النظام القانوني الدولي لا يكون في خدمة الإنسانية ، إلا إذا قام على قواعد العدل والإنصاف والمساواة، واستمد من روح الإنسانية وقيمها مبررات وجوده وعناصر بقائه واستمراره، أي أن العولمة أو الكونية ذات النفع العام، لابد وأن تكون محكومة بتشريع دولي موضوعي غايته الإنسان أينما كان، يكفل للشعوب والأمم احترامها وحقوقها كاملة وللإنسان حقوقه موفورة غير مهضومة.

إن التعارف والحوار والتفاعل بين الشعوب والحضارات، لكي يكون حقيقيا هادفا ومؤثرا يجب أن يقوم على قاعدة الاحترام المتبادل بالمعنى الأخلاقي، كما يجب أن يقوم التعاون والحوار بين الشعوب والأمم على قواعد اجتمع وأجمع الناس على صحتها وسلامتها وانعقد إجماع الإنسانية على اعتبارها القانون الذي يحكم المجتمع الدولي، حتى يكون التعارف والحوار في هذا الصدد مستندا إلى شرعية دولية مبنية على العدل المطلق والإنصاف، وإلى قواعد التشريع الدولي التي تمثل القواسم المشتركة بين جميع الشعوب والدول . وهكذا، يصير الحوار المفضي إلى التفاعل الحضاري ، فعلا إنسانيا مؤثرا في حركة التاريخ، وعنصرا مساعدا على استتباب السلام على الأرض، وقوة دفع

36 ـ «التويجري» عبد العزيز بن عثمان ـ المرجع السابق ـ ص 15.

لاستقرار الحياة الإنسانية و ازدهارها ولترقيتها. وليس في تنوع الحضارات وتعدد الخصوصيات ما يتعارض وقضاء المصالح المشتركة بين الشعوب والأمم في إطار التعاون الإنساني القائم على قاعدتي التعارف والتعايش، إنما ينطوي هذا النوع على عناصر تغذي الميول الإنسانية الفطرية نحو امتلاك أسباب التقدم والرقي بدافع من التنافس الفطري وبوازع من التدافع الحضاري [37].

وما دامت القيم الروحية والمثل الأخلاقية بهذا الحجم، فإنه لا يمكن تلافيها وتحجيمها وتجاوزها أو محوها وإذابتها في بوتقة هوية واحدة مهيمنة ذات سيطرة ونفوذ مهما تكن الذرائع، وبلغت ما بلغت الأسباب والدوافع، فليس في ذلك فقط خروج على طبيعة الأشياء، وتمرد على سنن الكون وفطرة الحياة التي فطر الناس عليها، وإنما في محاولة إلغاء القيم الروحية والخلقية بالعسر والإكراه، خرقا للقوانين المتعارف عليها عند الناس ومس خطير بقواعد التشريع الدولي وتهديد للسلم والأمن في العالم [38].

إن اتجاهات العولمة، ما هي إلا محاولة تجري في إطار سيادة ثقافة وقيم دنيوية غربية فرضت نفسها عالميا، بكل خلفياتها وظلالها وانعكاساتها، ومواقفها من الدين كلا وتفاصيل ثقافة وقيم علمانية دنيوية استبعدت الدين تماما من فلسفة العلم ونظرياته وقوانينه ومعالجاته. وهذه الثقافة تحظى بتعميم وتكريس عالميين، والمركز العالمي الجديد - الولايات المتحدة الأمريكية - يرى أن سيادة هذه الثقافة واكتساحها لكل ما عداه شرط ضروري ودعامة أساسية لما سموه بالنظام العالمي الجديد، مما جعل كثيرا من

37 - التويجري عبد العزيز - المرجع السابق - ص 17 - 18.

38 - انظر على الخصوص:

- «الغنوشي» راشد - الحريات العامة في الدولة الإسلامية - مركز الوحدة العربية - بيروت 1993 - ص 12.

- « التويجري» عبد العزيز بن عثمان - المرجع السابق - ص 18.

الشعوب، بل والحكومات في الغرب نفسه تخشى هذا الخطر القادم وترفض الاستجابة لدعواته والانخراط تحت لوائه [39].

ويعبر مفكرو الغرب عن هذه الحيرة الفكرية بوضوح وصراحة لا مثيل لها: ففي أحدث دراسة لـ Huntington Samuel يقول: إن شعوب العالم غير الغربية لا يمكن لها أن تدخل في النسيج الحضاري الغربي، حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية، واستمعت إلى الموسيقى الغربية، فروح أي حضارة في اللغة والدين والقيم والعادات والتقاليد، وحضارة الغرب تتميز بكونها وريثة الحضارات اليونانية والرومانية والمسيحية الغربية. والأصول اللاتينية للغات شعوبها، والفصل بين الدين والدولة، وسيادة القانون والتعددية في ظل المجتمع المدني، والهياكل السياسية، والحرية الفردية. ويضيف قائلا: إن التحديث والنمو الاقتصادي لا يمكن أن يحققا التغريب الثقافي في المجتمعات غير الغربية... ولذلك فإن الوقت قد حان لكي يتخلى الغرب عن وهم العولمة، وأن ينمي قوة حضارته وانسجامها وحيويتها في مواجهة حضارات العالم[40].

وعليه، فهل العولمة ما هي في الواقع إلا إعادة إنتاج نظام الهيمنة القديم وتقديمه في صورة جديدة للمواجهة الحضارية التي يخوضها الغرب؟

إن العولمة بهذا المفهوم وبمنطقها الذي يفرغ الإنسان من بعده الروحاني ويجعل منه آلة، ويخرجه من إنسانيته تتعارض مع الفطرة السليمة ومع الديانات الثلاثة التي هي دين أب الأنبياء جميعا عليه أفضل الصلاة والسلام .

---

39 ـ انظر على الخصوص:

ـ «فاضل عبد الصبور» ـ المرجع السابق ـ ص 20.

ـ «الغنوشي» راشد ـ المرجع السابق ـ ص 20 ـ 22.

40 -Huntington Samuel The West unique, not universel - Foreign affair - vol 75 - N°11 1996 -Nov- Dec- p28 -46.

إن اختلاف الديانات الثلاثة مع العولمة يبدأ من الجوهر إلى المقاصد مرورا بالقيم، وذلك أن العولمة تقيم ترتيبا تفاضليا جديدا وتخضع لأيدلوجية مبنية على منطق السوق والزيادة في الإنتاجية باسم النمو الاقتصادي. وتستعمل أدوات تفرض نمطها مثل التكنولوجيا ووسائل الإعلام والمؤسسات المالية الدولية التي توجه القرارات السياسية. في حين أن الديانات الثلاثة تقوم على فلسفة مغايرة ترجع الأمور لله المتصرف في الكون كله، وتهدف إلى إقامة العدل الذي يضمن إقامة المجتمع الدولي السليم[41].

والعولمة إذا سارت في الاتجاه المرسوم لها ستكون إنذارا بانهيار وشيك للاستقرار العالمي، لأن العولمة بهذا المضمون تضرب القيم الحضارية في العمق وتنسف أسس التعايش بين الشعوب. كما أن العولمة بهذا الطرح الشمولي ذي الطابع القسري ، ستؤدي إلى فوضى على مستوى العالم، في السياسة والعلاقات الدولية، وفي القانون والاقتصاد...الخ .

41 ـ انظر: «الغمقي» محمد ـ مادية العولمة في مواجهة الحضارة الإسلامية ـ مجلة المجتمع ـ العدد 128 ـ 23 شعبان 1418 الموافق 23 ديسمبر 1997ـ ص 43 ـ 44.

الخاتمة :

إذا لم يكن في استطاعة الإنسانية أن تتحرر في الوقت الراهن من ضغوط العولمة، فإنها ستتجاوز حالة الصراع الدموي والإكراه الإنساني إلى حالة التدافع الحضاري لتتم حماية المثل والقيم الإنسانية الخالدة ، في إطار تدافع حضاري يحمي الصوامع والمساجد والبيع والصلوات معا في ظل قيم ومثل دين الحق، المستوعب لكل التعدديات، الداخل لكل بيت(*) على نحو إنساني مناقض لمناهج الحضارات السابقة والقائمة في إبادتها لشعوب بأسرها أو إجبارها على قبول قيم وأفكار المتسلطين عليها تحت مختلف الأسماء ، ومنها من يسمى بالعولمة أو النظام العالمي الجديد. فالعولمة ليست حتمية ، ولا هي تطور طبيعي كما يحصل لأي كائن ، وإنما هي مشروع ومخطط استعماري يعمل النظام الأمريكي من خلاله كي يتفرد بقيادة العالم ، وكي يحقق ما يريد من اختراق لحدود الدول وسيادتها وللقيم الناظمة للحضارات .

إن العولمة الثرثرة على حد قول «بيترمان هانس» لن تستطيع إلغاء التنوع الثقافي ولا السنن الكونية في اختلاف الألسن رغم تطور وسائل الاتصال والإعلام . إن التنوع حقيقة وسنة كونية لا يمكن للأمركة أن تلغيها باسم العولمة ، والخصائص الوطنية للأمم ثوابت حضارية لا يمكن لوسائل الإعلام والاتصال أن تتجاوزها مهما تطورت ، وبالتالي تكون الولايات المتحدة الأمريكية لكل هذه العوامل عاجزة عن تحقيق مشروعها الحلم المسمى بالعولمة .

(*) ـ عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذل يذل به الكفر». الحديث رواه ابن حبان في صحيحه 1631 ـ 1632.

قائمة المصادر والمراجع :

1 ـ إبراهيم نصر الدين .

العولمة وانعكاساتها على دول العالم الثالث ـ في العولمة ـ ندوة بالجماهيرية العظمى ـ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ 1998 .

2 ـ أبو زهرة محمد .

المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ـ دار الفكر العربي ـ بدون تاريخ .

3 ـ أبو المجد أحمد كمال .

العولمة والهوية ودور الأديان ـ مجلة المسلم المعاصر ـ العدد 91 ـ السنة 23 ـ فبراير ، مارس أفريل ـ 1999 .

4 ـ التو يجري عبد العزيز .

الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي ـ مجلة الإسلام اليوم ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ العدد 15 لعام 1419 هجرية .

5 ـ الجبرتي .

مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ـ تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي ـ طبعة القاهرة ـ 1969 .

6 ـ حرب علي .

مسير التقدم والحضارة بين أنصاف زينون وأشبار أركون ـ صحيفة الحياة اللندنية ـ 1996/11/81 .

7 ـ السيد عليوة .

إدارة الصراعات الدولية ـ دراسات في سياسات التعاون الدولي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1988 .

8 ـ شلبي محمد مصطفى .

الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية ـ الدار الجامعية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ 1982.

9 ـ صالح هاشم .

التنوير الأوربي رد فعل للاقتتال المذهبي ـ صحيفة الشرق الأوسط اللندنية ـ 2002/02/26.

10 ـ عبد الدائم عبد الله .

المشروع القومي العربي في مواجهة الصهيونية ـ مجلة الآداب العربية ـ العدد الثالث ـ السنة 50 ـ أفريل 2005 .

11 ـ عبد الصبور فاضل .

الخطاب الإسلامي في ظل العولمة ـ مجلة الوعي الإسلامي ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ دولة الكويت ـ العدد 188 ـ السنة 32 ـ ذو الحجة 1418 هجرية .

12ـ عمارة محمد .

مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية ـ مجلة المسلم المعاصر ـ العدد 104 ـ السنة 26 أفريل ، ماي ، جوان 2002.

13 ـ الغمقي محمد .

مادية العولمة في مواجهة الحضارة الإسلامية ـ مجلة المجتمع ـ دولة الكويت ـ العدد 128 ـ شعبان 1418 .

14 ـ الغنوشي راشد .

الحريات العامة في الدولة الإسلامية ـ مركز الوحدة العربية ـ بيروت ـ 1993 .

15 ـ فوكوياما فرنسيس .

نهاية التاريخ ـ ترجمة حسين الشيخ ـ دار العلوم العربية ـ بيروت ـ 1993 .

16 ـ كروندن روبرت .

موجز تاريخ الثقافة الأمريكية ـ ترجمة مازن حداد ـ مراجعة أحمد يعقوب المجدوبة ـ الأهلية للنشر ـ عمان ـ 1995 .

17 ـ مصطفى نادية محمود . العلاقات الدولية في الإسلام ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ القاهرة 1996 .

18 ـ 40 -Huntington Samuel The West unique, not universel - Foreign affair - vol 75 N°11 -1996 .

19 ـ Encyclopédia Universalis - Editeurs - A - Paris .